

الإسلاموفوبيا بين التمرکز على الذات وتجاهل الآخر عناصر المواجهة الثقافية

أ.د. محمود يوسف حسينات
جامعة اليرموك

مقدمة:

الموقف الغربي من الإسلام موقف عدائي متجذّر في الذهنية الغربية وله أبعاده وأعماقه، ويتجلّى بوضوح في الثقافة الغربية من خلال ما كتبه المستشرقون عن الإسلام ومن خلال مختلف الفنون الأدبية كالرواية والمسرحية والقصة وفي ما ترجم من كتب دينية وفي مقدمتها القرآن الكريم، وفي ما عُقد ويُعقد من مؤتمرات سياسية وعسكرية واقتصادية تُعمّق الهوة وتُجذّر الصورة النمطية وتكرّس الأحكام المسبقة التي تلغي الحوار أو التفكير في الحوار والتي تزرع وتنمّي "عقدة الخوف من الإسلام" أو ما أصبح يُعرف "الإسلاموفوبيا".

اختلفت التعريفات التي تدل على "الخوف من الإسلام" وكل ما يتعلق به من مبادئ وعقائد وثقافة وأشخاص ومواقف، وقد يكون أقرب تلك التعريفات ممن عاش بالغرب واكتوى بنيران العنصرية ما ذكره المفكر المصري سعيد اللاوندي بأنها "الخوف المرضي (وغير المبرر) من الدين الإسلامي، فأى شخص يدين بهذا الدين سيكون بالضرورة، وبحسب هذا المعنى، مجرماً وإرهابياً.. ومن ثم يتعين الحذر منه، والابتعاد عنه". واستناداً إلى هذا المفهوم أعطى الغرب - أوروبا وأمريكا - لنفسه التعامل مع العرب والمسلمين بوحشية وهمجية لأنهم برأيهم لا يستحقون غير ذلك. ولكن ما هو سرّ هذا العداء الذي رده البعض إلى اللحظة التي ظهر فيها الإسلام؟ وهل انتقلت عدوى العلاقة بين الإنسان والقوى الخبيثة التي كانت تقوم على قواعد الصراع والعداء والحق الذي ليس له مثيل بحكم طبيعة أوروبا وتكوينها الجغرافي والمادي والبشري والذي تجلّى في المسرح الغربي الذي أخرج للناس أولى التراجيديات الكبرى على يد اسخيلوس (Aischylos 525 ق. م. - 456 ق. م.) وسوفكليس (Sophokles 497/496 ق. م. - 406/405 ق. م.) ويوريبيدس (Euripides 480 أو 485/484 ق. م. - 406 ق. م.) والتي تحدثت عن الصراع بين الإنسان والغيب،¹ وتجلت في عصرنا الحاضر في مبدأ الوجودية "Existentialismus" الذي مثله الفيلسوف الفرنسي جان-بول شارل إيمارد سارتر (Jean-Paul Charles Aymard Sartre 1905-1980) دون أن تفقد دلالتها وإحياءاتها. هل انتقلت هذه العدوى بين الإنسان الغربي وما يحيط به من أمم فقتل من قتل وأحرق من أحرق (بالبفتح والضم) من الهنود الحمر بعد دخول كريستوف كولمبوس (Christoph Kolumbus 1451-1506) سنة 1492 إلى أمريكا، وهل كان سكان القارة الجديدة مسلمين لنبرر القتل والحرق لهم؟ وهل كان سكان القارة السوداء الذين تم جلبهم كعمال سخرة إلى أمريكا فقتل من قتل وألقي في البحر من ألقى كلهم مسلمين؟ أم أن العداء للآخر ومنه المسلم وما يمثله من قيم مرده إلى التعالي والتمركز حول الذات وتجاهل الآخر واحتقاره؟

جذور المشكلة:

شكّل الإسلام منذ ظهوره نقطة تحوّل في تاريخ البشرية وأبدى فاعلية تجاوزت ما هو معروف عن الحضارات الإنسانية، وما هو مألوف عن الأديان التي كانت تعرفها البشرية، فالإسلام ليس ديناً فحسب، إنما هو ثقافة ومنهج حياة ونمط حضارة وسياسة ومنبع أخلاق، ولذلك كان، ولا يزال ينظر إليه في الدوائر الثقافية والحضارية والدينية المغايرة نظرة شك وتوجّس وريبة، فهو يتميّز بسرعة الحركة وقوة التأثير وتتأسق المواقف ومطابقة القول للواقع، وهو ما دفع البعض إلى القول بأن أسباب الموقف الغربي من الإسلام إنما تعود إلى القرن السابع الميلادي، حيث يذكر القائد الإنجليزي Sir John Bagot Glubb غلوب باشا (1897-1986) الذي أشرف على تأسيس الجيش الأردني بأن مشكلة الغرب مع الإسلام تعود إلى اللحظة التي ظهر فيها الإسلام أي إلى القرن السابع الميلادي. إن مردّ هذه المخاوف والشكوك إلى

المعطيات التاريخية الدائرة في فلك الدعوة الجديدة، فقد كانت الجيوش التي تحارب باسم أول دولة إسلامية في القرن السابع والثامن للميلاد قد تخطت حدود الجزيرة العربية حتى بلغت قلب الدولة الفارسية شمالاً فسقطت المدائن عاصمة كسرى، ووصل قتيبة بن مسلم إلى بلاد الصين شرقاً، واتجهت شمالاً فتخطت حدود الدولة الرومانية وفتحت بلاد الشام، واتجهت غرباً مروراً بمصر حتى شمال أفريقيا وإسبانيا، ولم تكن هذه الفتوحات بقصد الغنائم والاستيلاء على الأراضي وإذلال الشعوب، بل تمخض عنها اعتناق الدين الإسلامي على نطاق واسع حتى أضحت بلاد الشام والشمال الأفريقي في قلب العالم الإسلامي.

عناصر المواجهة الثقافية:

تتامت مع الزمن لدى الآخر/المسيحي هواجس الخوف من الإسلام فتداعت النظم الإقطاعية التي كانت تحكم بمساعدة الكنيسة لتحرير البلاد المقدسة والذي تمثل في الحروب الصليبية التي استمرت منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر الميلادي (1095-1291) لإيجاد حالة من التداخل المتكافئ بين الإسلام الذي يمثل الشرق والمسيحية التي تمثل الغرب، واتخذ مفهوم "الأنا" و"الآخر" أبعاداً جديدة تقوم على الصراع، طغى عليها البعد الديني وإن كان البعد الاقتصادي لم يكن غائباً تماماً، ولكن معركة حطين التي حدثت سنة 1187 بخّرت كل أحلام الفرنجة في السيطرة على البلاد المقدسة، وتبخرت معها كل الأحلام الاقتصادية، حتى أن حملة سكان البندقية الذين تدفقوا لحماية البلاد المقدسة قد سرقوا السفن لحمل أمتعتهم عليها عندما أصبحت الهزيمة أمراً واقعاً، ودعوا مسيحيي مدن الساحل لوضع أمتعتهم في السفن والرحيل معهم خوفاً من المسلمين، وعندما تم لهم ذلك منعوا السكان من الصعود للسفن ومن قاوم قتلوه وهربوا بالسفن وما عليها، أما البابا والقساوسة فلم تكن تهمهم الهزيمة بقدر ما كان يهتمهم أخذ جزءاً من الغنائم.¹

أثقلت الحروب الصليبية العلاقة بين المسلمين والمسيحيين بالأحكام الخاطئة وغير الموضوعية، وبدلاً من البحث عن بدائل موضوعية تخفف حدة الصراع تمّ اللجوء إلى وسائل أخرى تُذكي نار العداوة بين الطرفين، فعمدت الكنيسة إلى ترجمة معاني القرآن الكريم بحجة فضح "الفكر الضال" الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - على حد زعمهم، وأولكت المهمة إلى القسيس بطرس فينيرابلس Petrus Venerabilis رئيس دير كلوني Abt Von Cluny في مقاطعة بورغندي الفرنسية الذي قام بزيارة لإسبانيا قبل البدء بالترجمة، وقد كلف لتلك المهمة رجلين التقى بهما هناك - هما البريطاني روبرتس كنتنيس Robertus Ketenesis وهيرمنس دلماتا Hermanus Dalmata من ألمانيا، والمثير للاستغراب أن الكنيسة منعت طبع هذه الترجمة وإخراجها إلى الوجود، بحجة أن طبعها من شأنه أن يساعد على انتشار الإسلام بدلاً من أن يخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة وهو محاربة الإسلام، وبقيت الترجمة عدة قرون تُصنّف وتختصر إلى أن طبعت سنة 1543 في بازل من قبل القسيس بيليندار تيودور Theodor Bibiliandar، وذلك بناءً على نصيحة من مؤسس الكنيسة البروتستانتية مارتن لوثر (1483-1556). عبّر مارتن لوثر بشكل دقيق وأمين عن العقيلة التي كانت سائدة في أواسط الكنيسة، ولم يمنعه خلافه مع الكنيسة الكاثوليكية من الحديث عن الإسلام وعن الرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوب مُبتذل، ما كان له أن يصدر من رجل بمستوى مارتن لوثر يعزّز على أحد مهمما كان مستواه العلمي ذكره، أما حجة لوثر في السماح والدعوة لنشر ترجمة القرآن الكريم التي أنجزها كنتنيس فقد صاغها بنفسه: "لقد استيقنت أنه لا يمكن عمل شيء أكثر إزعاجاً لمحمد أو الأتراك، ولا أشد ضرراً (أشد من جميع أنواع السلاح)، من ترجمة قرآنهم ونشره بين المسيحيين، عندئذ سيتضح لهم أي كتاب بغیض وفطیغ وملعون هذا القرآن، ملئ بالكاذيب والخرافات والفضائح التي يخفيها الأتراك ويحملونها".²

ازداد الخوف من التركي الذي كان يمثل الدولة الإسلامية، والذي وقف على أبواب فيينا أكثر من مرة كان آخرها سنة 1683، ثم دارت الشبهات حول المسلمين الذي تنصروا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة سنة 1492 آخر قلاع المسلمين في إسبانيا،³ وقد أدت المخاوف المتوارثة من القرون الماضية والتي انعكست عسكرياً في الحروب الصليبية التي لم تُعطي أي نتائج تُذكر إلى البحث عن بدائل أكثر نجاعة وأطول أمداً، مما يعني أن المواجهة ستأخذ بعداً أكثر شمولاً، فمعرفة الآخر أضحت متبادلة والوعي بالآخر أصبح أكثر تمثلاً، وليس مجرد نظرة سطحية عابرة يمكن أن تُحسم بالحرب أو تُنجز بترجمة كتاب أو درس خطابة، وتحول النظر إلى الآخر كقوة عقديّة وقوة معرفية مقرونة بنزوع حربي تتطلب تمثلاً

معطياته الفكرية وخطابه الثقافي وإتقان لغته من أجل الكشف عن مكامن قوته وضعفه، وهكذا برزت الدعوة إلى استبدال وسائل الحرب على الإسلام بالجهد التبشيري الاستشراقي وتخفيف حدة الخوف من انتقال عدوى الأسلمة عبر دراسة خطابه الديني والثقافي أو تعلم لغته العربية، فبدأت مرحلة جديدة لإنشاء مؤسسات علمية تُعنى بالدين الإسلامي والشعوب الإسلامية وتتعلم العربية.

ليس ثمة تاريخ معيّن لبدء الاستشراق، إلا أن بعض الباحثين يشير إلى أن بدء الاستشراق يرتبط بصدر "مجمع فيثا الكنسي" عام 1312 بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في بعض الجامعات الأوروبية، غير أن الاستشراق كعلم لم يظهر في أوروبا إلا في نهاية القرن الثامن عشر، فظهر أولاً في إنجلترا عام 1779 وفي فرنسا 1799.⁴

ارتبط الاستشراق بالتنصير، وإذا كان الاستشراق يقوم على تعلم اللغات الشرقية كوسيلة للتعرف على عادات وثقافات الأمم التي تتكلم تلك اللغات، فإن الكنيسة ودعاة التنصير أصبحوا على قناعة بأن التنصير لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا بتعلم لغات الشعوب الإسلامية وأولها اللغة العربية، مما يعني أن هناك تماثل في الهدف بين الاستشراق الأكاديمي والتنصير الكنسي، وأن هناك نوعاً من التحالف لا يزال قائماً حتى وقتنا الحاضر.⁵ إننا لا نستطيع أن نغبط ما للاستشراق من دور في جمع المخطوطات الإسلامية وتحقيقتها ونشرها، وإن كان جزء منها قد سُرق من المدارس والمكتبات الإسلامية وأخذ بطرق غير مشروعة،⁶ والتأليف في السنة النبوية والحديث الشريف والتاريخ الإسلامي. وقد كان لظهور النزعة العقلية في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر دور في النظر للإسلام بموضوعية، فظهرت بعض المؤلفات التي أنصفت الإسلام بعيداً عن غلو الكنيسة، وبدأت تدعو لدراسة الإسلام بعيداً عن الجهل والتعصب، والنظر إلى الإسلام والمسلمين بعينه وليس بعيون الآخرين، والتوقف عن وصف الدين الإسلامي بأنه دين خرافات مضحكة ووصف نبيه صلى الله عليه وسلم بالكذب والتضليل، والتوقف عن تقسيم الناس إلى شعوب متفوقة كالجنس الآري وشعوب متخلفة كالجنس السامي، غير أن تلك الجهود لم تقلح في تغيير الصورة المتجذرة في العقلية الأوروبية، وذلك لأنها بقيت جهود فردية ولأن الأدب وخاصة المسرح أقرب إلى قلوب الناس من الاستشراق، فإذا كانت الدراسات الشرقية توجه السياسة ومن يصنعون السياسة فإن الأدب كان يوجه عامة الناس، وبقي كل مجال يصنع الإسلاموفوبيا على طريقته الخاصة.

تحرّر الاستشراق إلى حدّ ما من سلطة الكنيسة التي تراجعت أصلاً مع قيام الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر ليقع ثانية في براثن السياسة الاستعمارية وليقيم معها علاقة متبادلة، وإذا كان الاستعمار الغربي قد أفاد من التراث الاستشراقي، فإن الدراسات الشرقية قد ازدهرت وتوسعت لتشمل اللغة والدين والعادات والتقاليد والثروات لأنها تخدم السياسة الاستعمارية، فعندما استولى الفرنسيون على الجزائر سنة 1830 كان المستشرق الفرنسي الكبير أنتونيو دي ساسي Antoine-Isaac Baron Silvestre de Sacy (1758-1838) مستشاراً في الخارجية الفرنسية، وهو الذي ترجم البيان الذي وجهه الفرنسيون للشعب الجزائري ليسفر عن وجهه الحقيقي من وراء دراسته،⁷ وهو ما دفع بعض المستشرقين إلى التعبير عن خجله ومرارته بسبب ارتباط الاستشراق بالاستعمار.⁸ ولكن ونحن في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين حيث يرفع الغرب دعوات "حقوق الإنسان" و"الحريات" و"الديمقراطيات" و"حق الشعوب في تقرير المصير" هل تجاوز المستشرقون الروح العدائية الاستعمارية في نظرهم للآخر/المسلم؟ وهل للاستشراق دور في مد الجسور ودعم روح التفاهم بعيداً عن السياسة

ودهاليزها؟ يرى المستشرق Ulrich Haarmann أولرش هارمان (1942-1999) إن الدعم المالي من قبل الحكومات والمؤسسات التي تصنع القرار لم تتوقف "لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم العربي الإسلامي والتشبث به، باعتباره منطقة اضطراب، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه"،⁹ ليجيب بذلك على كل التساؤلات التي تطرح والدعوات التي تبرئ الاستشراق من أية نوايا وأهداف مشبوهة. وكان للمستشرقين اليهود الذين يعيشون في أوروبا بصفتهم مواطنين أوروبيين دور وأهداف تلتقي مع أقرانهم من المستشرقين الآخرين، فقد دخلوا ميدان الاستشراق بوصفهم الأوروبي وليس بوصفهم اليهودي وعملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين، وقد التقت أهدافهم الدينية في النيل من الإسلام وإضعاف قيمه من طرف وخدمة للحركة الصهيونية والدولة اليهودية التي زرعتها أوروبا وتمثلت ككنة عسكرية متقدمة لأوروبا وأمريكا في المنطقة من طرف آخر مع أهداف أقرانهم من المستشرقين.

إذا صحت مقولة أن "كُتَّاب القصص هم الذين يحكمون المجتمع" التي يردُّها البعض إلى Plato أفلاطون (347/427-348/428 قبل الميلاد) فقد أخذ الإبداع الأدبي دوره في المواجهة وإن كانت بداياته ذات صبغة دينية - وما دام المجال لا يتسع لا لعرض ولسرد ما كُتب فسيتم الاكتفاء ببعض الأفلام التي كتبت بالألمانية من ألمانيا والنمسا وسويسرا - . تعود ملحمة "أغنية رولاند" Rolandslied التي كتبها القس الألماني Pfaffe Konrad فافي كونراد سنة 1172 إلى عصر اللغة الألمانية الوسيطة، وقد أخذها من "أغنية رولاند" Chanson de Roland في الفرنسية، وذلك بتكليف من هاينرش الأسد Heinrich der Löwe (1129/1130 أو 1133/1135-1195) الذي ينتمي إلى عائلة Welfen فيلغن الألمانية وحكم مقاطعة Sachsen زاكسن ما بين 1142-1180 ومقاطعة بافاريا Bayern بين 1156-1180. وتصف الملحمة المسلمين بأنهم كفرة وعباد أصنام وتحدث عن الصراع القائم بين المسيحيين والمسلمين في الأندلس والذي ينتهي بهزيمة المسلمين بعد تدخل الإرادة الإلهية ودخولهم بالمسيحية.¹⁰ ومن الأعمال الأدبية التي أنصفت المسلمين¹¹ مسرحية "ناتان الحكيم" Nathan der Weise¹² التي كتبها غوتهلد افرايم ليسنغ Gottthold Ephraim Lessing (1681-1729) بوحى من المرحلة التنويرية (Aufklärung).¹³ قدّم ليسنغ السلطان المسلم صلاح الدين الأيوبي¹⁴ كشخصية إيجابية مقارنة بالصورة النمطية للحاكم المسلم التي تناولها العديد من الكتاب. وتدور أحداث المسرحية في مدينة القدس، حيث يجلس صلاح الدين كتمثل للدين الإسلامي وناتان الحكيم كتمثل للدين اليهودي وفارس المعبد عن الدين المسيحي للحديث عن الدين الحق وذلك من خلال حبكة "الخواتم الثلاثة" Die Ringparabel، وهو الخاتم الذي تركه الأب لأبنائه الثلاثة. وقد تبنّى الكاتب بحكم علاقته القوية مع صديقه موسى مندلسون Moses Mendelssohn الذي كان يعتبر من رموز الفكر الماسوني في ألمانيا في القرن الثامن عشر، وقد تأثر ليسنغ بالفكر التنويري الماسوني الذي دخله لفترة قصيرة ولكنه لم يلبث أن خرج منه لأنه لم يجد فيه ضالته. تبنى الكاتب في المسرحية الاتجاه السائد في اليهودية بأن على كل إنسان أن يسعى للخلاص داخل دينه، وأن الجنة لا تكون إلا من نصيب الصالحين في كل الأديان، ومع أن المسرحية تعكس الصورة الإيجابية التي يتمتع بها السلطان المسلم في الأدب الأوروبية والذي عُرف بتسامحه أثناء دخول القدس، فقد أعاد كنيسة القيامة إلى النصارى عندما فتح القدس سنة 1187، ولم يقتل أحداً من أتباع الديانات الأخرى، بل عفا عن الأسرى وفرق عليهم الصدقات مقارنة بالصورة التي خلدها بعض كتب التاريخ الأوروبي، بأن الغزاة الصليبيين تعاملوا مع مسيحيي فلسطين بالدهاء والمكر حيث طلبوا منهم تحميل أموالهم وممتلكاتهم ليأخذوهم معهم بحجة أن المسلمين سيقتلونهم، ولكنه بدا بالإضافة إلى صورته الإيجابية كرجل مقامر يبدّر الأموال، بل إن الدين بالنسبة للسلطان قد بدا في المسرحية في آخر سلّم أولوياته. أما الأعمال التي كرّست العداء وكان لها دور في تجذير الصورة النمطية للشخصية المسلمة فهي كثيرة.

استحوذ الأديب الألماني Karl May (1842-1912)، الذي يشكّل ظاهرة في الأدب الألماني أو حدثاً على عقول الكثير من الناس بمختلف الأعمار لما كتبه من قصص وحكايات مغامرات كان الشرق والغرب مسرحاً لأحداثها، وكان لها دور كبير في تشكيل الصورة النمطية للشعوب الإسلامية في الغرب. شخصيات كارل ماي التي تمثل بعض الشعوب الإسلامية التي زار الكاتب بلاد بعضها منها مجرد أدوات وضع في أفواهها ما يريد قوله، وهي شخصيات نمطية تناسب الصورة التي تعيش في فكره، فالشخصية العربية حج خلف عمر Hadschi Halef Omar التي رافقت كارل ماي في رحلاته هي شخصية خشنّة مضحكة تناسب وصفه كخادم، وعلى عكس ما هو مألوف من إكرام الضيف عند العرب المسلمين، فهم يواجهون الغريب بروح عدائية تؤدي إلى التصادم،¹⁵ والتركي إنسان خشن ولكنه بدوي يقض، إنسان واقعي وطيب وكريم يقدم للآخرين ما يملك، ولكن روحه الخفيفة حكمت من النسيج الخطير للخيالات والأكاذيب والتناقضات الإسلامية¹⁶ أما الألبان فيتميّزون بالقسوة والقوة والتعصب والإيمان بالخرافات، وهم ميالون للفوضى والسرقة والقتل على أتفه الأسباب¹⁷

وتعتبر المسرحية الغنائية "بيلمونت وكونستسي أو اختطاف من السرايا"¹⁸ die Entführung aus dem Serail للكاتب النمساوي Bretzner Christoph Friedrich كريستوف فريدرش بريتنسر (1748-1807) التي كتبها سنة 1781 من أشهر المسرحيات الغنائية التي تناولت اختطاف النساء

وخاصة المسيحيات في عرض البحر من قبل القراصنة المسلمين وبيعهن للسلطين والحكام الإداريين في الدولة العثمانية. وفي مسرحيتي Ibrahim Bassa "إبراهيم باشا" 19 و Ibrahim Sultan "السلطان إبراهيم" 20 للكاتب الألماني Daniel Caspar von Lohndstein دانيال كاسبر فُن لُونشتاين (1635-1683) يمثل السلطان صورة الحاكم الظالم عديم القلب الذي لا هم له إلا النساء (الحريم) وحبك المؤامرات والقتل. وهي مجرد أمثلة تبين اهتمام الأدباء وكتاب المسرح والملاحم بالأنساق الهامشية للشخصيات الإسلامية وترك سيرهم الذاتية لأنها تخالف ما يريد الأدباء عرضه للمشاهد والقارئ. ويدخل الإعلام المرئي والمسموع على خط المواجهة لديمومة صورة "الخوف من الإسلام" في الغرب، خاصة إذا رصد ضعفاً ذاتياً في مفعول الظاهرة فإنه يبذل الجهد لزيادة مفعولها لمضاعفة حدة الجانب المرضي فيها، وهو يزعم أنه يشكو منها ويريد مكافحتها. فالأفلام السينمائية والرسوم الكاريكاتورية وكل ما يعرض على الشاشات الصغيرة، كالشبكة العنكبوتية (النت) والأجهزة الخلوية ضمن العناصر التي تغذي الإسلاموفوبيا، وتضعنا أمام حقيقة أن الغرب مهما تقدّم مسكون بالخوف من الإسلام، وقد ساهمت السينما الأمريكية في تشويه صورة العرب والمسلمين، ولعب الصراع العربي الإسرائيلي والنقط دوراً كبيراً في رسمها، وبدلاً أن يكون الذهب الأسود سلاحاً للتحكّم ورسم السياسات العالمية ونصرة قضايانا المصيرية تحوّل إلى لعنة ونقمة ونذير شؤم، فالعرب في السينما الأمريكية وفي الإعلام الغربي أشرار لا يفهمون شيئاً عن الحضارة الإنسانية، يحبّون القتل ويعشقون الجريمة. 21 وبعد أحداث 11 سبتمبر 2001 أصبحت صورة العربي المسلم أكثر غموضاً، فهو رجل إرهابي ومتطرف، وبلغت الأمور ذروتها عندما أعلن الرئيس الأمريكي بوش الابن بأن ما جرى عام 2001 هو حرب دينية، مما فتح الباب لتيارات التخويف والتخريض على كل ما هو مسلم وعربي، فحدثت حالات تمزيق وتدنيس وحرق للقرآن الكريم وحالات اعتداء وقتل لمسلمين يعيشون في بلاد الغرب. ونشرت بعض الصحف الدنماركية رسوماً كاريكاتورية مسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم في سبتمبر 2005 وتبعتها صحف نرويجية وصحف أوروبية أخرى منه صحيفة "فرانس سيوار" France Soir 22 بدعوى حرية الرأي والتعبير التي يتمتع بها الأوروبي، وأيد هذا الرأي العديد من الساسة الأوروبيين الذي ألّفوا على المسلمين تهمة التعصب وضيق الأفق.

إن السؤال الذي يطرح، لماذا الإسلام دون غيره من الأديان يحرص الأوروبيون على النيل منه؟ فلو لم يكن سلمان رشدي في روايته "آيات شيطانية" مسلماً ويتجاوز في روايته كل حدود الذوق، هل كانت الصحف الأوروبية ستتهّم به وتضع روايته ضمن حرية التعبير، والأمر ينسحب على الكاتبة البنغالية تسليمة نسرين في كتابها "اللجنة" الذي طالبت فيه بإلغاء القرآن الكريم؟ وهل في أوروبا وأمريكا من يجروّ على إلغاء الإنجيل؟ أو يجروّ علناً على اقتناء أو بيع أو طباعة كتاب "كفاحي" Mein Kampf لأدولف هتلر (1889-1945)؟ وهل يجروّ أحد على إنكار المحرقة النازية أو الحديث عن الدولة الصهيونية؟ فقد أحرق المفكر الفرنسي روجيه جارودي الذي أعلن إسلامه سياسياً لأنه فضح الأساطير المؤسسة للدولة الصهيونية في العديد من كتبه، ومنها كتابه "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" 23 ومثلت صحيفة "لوموند الفرنسية" Le Monde 24 أمام المحكمة لبيان نشره جارودي والقس إتيان ماثيو والأب ميشيل لولون يدينون فيه المجازر الإسرائيلية في لبنان. 25 ولا يتسع الحديث لتناول ما تنقله وتقرّحه وسائل الإعلام التي يبدو عليها التخبّط بين من يدعو إلى نقل الحرب من خارج الإسلام إلى داخله ومن يدعو إلى "إسلام معدّل"، يقطع العلاقة بالماضي ويبنى أسساً تمجّد العلمانية والرؤى الغربية. إن ساسة ومفكري الدول الأوروبية وأمريكا الذين يصلون إلى سدة الحكم بطرق ديمقراطية، يتحدّثون عن الديمقراطية في بلادنا ولكنهم يدعمون الظلم، ولا يحبّزون أن يروا أو يسمعوا إلا عن الإسلام المنغلق الجاهل، إسلام من صناعة الإعلام، تتحكّم به الأهواء والأغراض والنيّات المبيتة، إسلام عدو للإبداع بكافة أشكاله ونقيض للأفكار العلمية والعلمانية في الغرب، إسلام يخضع لاعتبارات السياسة ويضع المسلمين في خندق واحد، خندق السطحية والإرهاب والقتل، لأن ذلك يخدم مصالحها، ويقف بالمرصاد لمن يحاول الكشف عن الوجه الحضاري للإسلام، لأن ذلك يعرّي سياساتهم وسياساتهم، ولا يترددون من تقديم كافة المساعدات لرموز التعصب والإرهاب والظلم، "لأنها لا يرون سوى السيطرة

على العالم وضمان إستمراريته، سوقاً رحباً لكل منتجاتهم، ولن يساعدهم في تحقيق ذلك -إلى جانب وسائلها العسكرية- سوى هؤلاء المنغلقيين على ذواتهم".²⁶

خاتمة:

يفتقد المستشرقون الموضوعية عند كتابتهم عن الإسلام، ويصطدم المتابع بالتحامل غير المبرر الذي يستمد ركائزه من التقاليد الموروثة المستمدة من الحروب الصليبية، فالمستشرقون يلعبون دور الجاني والضحية ويعطون لأنفسهم حق إعطاء الأحكام، فالإسلام الذي يعرضونه في كتبهم إسلام لا نعرفه ولا ندين به، ومحمد صلى الله عليه وسلم الذي نؤمن برسالته غير محمد الذي نسجه خيالهم. لقد مضى على الاستشراق أكثر من خمسمائة عام، وبقي الاستشراق بوسائله وأساليبه وأهدافه التي اشتقت بوحى من العصور الوسطى، وكل ما حدث من تغير هو تبديل للثياب لتماشى روح العصر وتكون أقرب للواقع. وينظر المستشرقون للحركات الباطنية المنشقة عن الإسلام بأنها حركات تحرر عقلي ويعلقون عليها الآمال، ويبحث المستشرقون عن كل غريب وشاذ على أنه من الإسلام، ويقيس المستشرقون الإسلام على ما لديهم من قوالب مصبوبة جاهزة، ولكن هل في الغرب مسيحية، وماذا أبقت أوروبا بعلمانياتها وبماديتها وخوائها الروحي من المسيحية غير دولة الفاتيكان؟ عند المستشرقين كل شيء مباح ولا حرمة لشيء يتعلق بالإسلام إلا الموضوعية، وإلا فما معنى أن يكتب المستشرق النمساوي غوستاف غرونباوم Gustav Edmund von Grunebau (1909-1972) الذي كتب الكثير عن الإسلام وحضارته من "أن الإسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها في أي دين آخر أو حضارة أخرى. فهو يبدو دين غير إنساني وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية، وهو دين غير خلاق وغير علمي واستبدادي".²⁷

نعيش في الفراغ، والطبيعة تكره الفراغ، ولم نصل بعد إلى ترتيب أوراقنا والتصالح مع ذاتنا لمواجهة كل صور المواجهة، فالبور الملتهبة في العديد من أقطار العالم الإسلامي بحاجة إلى إطفاء قبل التواصل مع الآخر أو تبديد مخاوفه، والحدود المصطنعة التي رسمتها فرنسا وإنجلترا وتصنعها أمريكا، وبطل لها ليل نهار مما يعمق الإقليمية والقطرية، وتسامحنا وقبولنا لها يعني القبول بكل ما يترتب على هذه الحدود من هويات وثقافات وأنظمة، والقبول بالواقع هو قبول بالمحركة تلوى المحركة. لقد أحرقت الكتب في بغداد سنة 1258 وفي غرناطة 1492 والذي يُعني على حد تعبير الأديب الألماني هاينرش هايني Heinrich Heine (1797-1856) "حرق الإنسان"،²⁸ ولكن اليوم تُحرق الأوطان وتُحرق الثقافات وتُحرق الهوية ويحرق كل شيء بحجة "الإرهاب" والتعصب والتشدد، ويخجل الكثيرون عندما يتحدثون عن الإرهاب والتعصب الحديث عن حرق الإنسان والأرض والذاكرة على يد اليهودي في فلسطين وعلى يد الغربي والأمريكي والروسي في سوريا والعراق.

إن التفاهم والتسامح والتعايش بين الشرق والغرب يتطلب التخلي عن روح التعالي والتمركز حول الذات باعتبار أوروبا امتداداً للحضارة اليونانية ومركزاً للحضارة الإنسانية المعاصرة، ويتطلب التخلي عن إلغاء الآخر/الإسلامي وما قدمه للإنسانية من منجزات حضارية، وهو موقف لا ينسحب على كل ما هو أوروبي أو أمريكي، فإذا كان الغرب يقدر سلمان رشدي لأنه كتب "آيات شيطانية" في الطعن بالرسول صلى الله عليه وسلم ويقدر تسليمه نسرين لأنها طالبت في كتاب "اللجنة" بإلغاء القرآن الكريم كنوع من انتصار موهوم على الإسلام، فإن في الغرب مفكرين ومستشرقين وأدباء لهم إسهامات مشرقة في بناء جسور الثقة بين الشرق والغرب، فالمفكر الفرنسي روجيه جارودي Roger Garaudy والمفكر الألماني ليوبولد فايس Leopold Weiss (محمد أسد) رحمهما الله، والأديب الألماني يوهان فولفغانغ غوته Johann Wolfgang von Goeth والمفكر والأديبة الألمانية آنا ماري شيمل Annemarie Schimmel وغيرهم الكثير من أكبر دعاة التسامح والتعايش بين الشرق والغرب.

الهوامش:

- 1 سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا. لماذا يخاف الغرب من الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة 2006، ص 9.
- 2 عماد الدين خليل: مشكلة القدر والحرية في المسرح الغربي المعاصر. الدار العلمية: بيروت 1971، ص 5 وما بعدها.
- 3 نقلاً عن: ثابت عيد: صورة الإسلام في التراث الغربي. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة، ص 3.
- 4 انظر:

Horst Albert Glaser (Hrsg.): Deutsche Literatur. Eine Sozialgeschichte 1. Aus der Mündlichkeit in die Schriftlichkeit: Höfische und andere Literatur 750-1320. Rowohlt: Reinbek bei Hamburg 1988, S. 325.

5 Hans Medick; Peer Schmidt (Hrsg.): Luther zwischen den Kulturen. Vandenhoeck & Ruprecht: Göttingen 2004, S. 271-272.

6 عن معاملة المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة، أنظر: محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكيين الكاثوليكين (1447-1516). شركة المطابع النموذجية: عمان 1980.

7 محمد حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني 1527-1598. شركة المطابع النموذجية: عمان 1982.

8 Edward W. Said: Orientalismus. Verlag Ullstein: Frankfurt/M – Berlin – Wien 1981, S. 60-62.

9 أنظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. مكتبة وهبة: القاهرة 1964، ص 581-612.

10 محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. مطابع الدوحة الحديثة: قطر 1983 (سلسلة كتاب الأمة 5)، ص 61.

11 Edward W. Said: Orientalismus. Verlag Ullstein: Frankfurt/M – Berlin – Wien 1981, S. 142. (1937-الآن) الذي أبدى استيائه من مواقف بعض Stefan wild¹² من ذلك موقف المستشرق شتيفان فيلد. المستشرقين الذين سَخَرُوا أعلامهم لإذلال المسلمين. أنظر: محمود حمدي زقزوق: الإسلام في مرآة الفكر الغربي. دار الفكر العربي: القاهرة 1994، ص 60.

13 أنظر: المقالة التي كتبها المستشرق الألماني أولرش هارمان عن الاستشراق الألماني في مجلة "الباحث"، العدد 25 كانون الثاني [يناير]-شباط [فبراير] 1983. نقلاً عن: زقزوق: الاستشراق، ص 55.

14 Carl Wesle (Hrsg.): [Das Rolandslied des Pfaffen Konrad](#). 3., durchges. Auflage. Niemeyer Verlag: Tübingen 1985.

Johann Wolfgang von Goeth ومن ذلك ما كتبه الأديب الألماني الكبير يوهان فولفغانغ غوته¹⁵ للأديب Mahomet (1749-1832) عن الشرق والإسلام، وإن كان يؤخذ عليه ترجمته لمسرحية "محمد" Heinrich التي أفحش فيها بوصف النبي صلى الله عليه وسلم؛ وما كتبه هينرش هايني Voltair الفرنسي فولتير سنة 1823 التي تناولت سقوط مملكة غرناطة "Almansor" (1797-1856) في "مسرحية المنصور" Heine سنة 1492 وما تبعها من تهجير وتنصير قسري وسبي للنساء وقتل للأطفال.

16 Gotthold Ephraim Lessing: Werke in 8 Bänden. Hrsg. von Herbert G. Göpfert. Carl Hanser Verlag: München 1970-1979; Bd. 1. S. 306-346.

17 حركة التنوير أو العقلانية (Die Aufklärung): هي حركة فلسفية فكرية تدل في الغالب على الفترة الواقعة ما بين 1650-1800 وتركت بصماتها على كافة مجالات الحياة الفكرية والأدبية والفلسفية، ووجد لها رواد في مختلف البلدان الأوروبية خاصة فرنسا، وإنجلترا. ويعتبر ليسنغ من أبرز أدباء التنوير في ألمانيا، وقد أشار الفيلسوف الألماني Immanuel Kant إمانوئيل كانت (1724-1804) الذي كان معاصراً لليسنغ إلى معنى التنوير بقوله: "ليس معنى التنوير إلا انتقال الإنسان من حالة قصوره العقلي إلى رشد الذي لا يمنعه عن الانتقال إليها إلا أسبابا راجعة إلى نفسه". أنظر:

Karl Vorländer: Philosophie der Neuzeit. Die Aufklärung. Geschichte der Philosophie. Rowohlt: Reinbek bei Hamburg 1967, S. 246ff.

<http://www.Isg.musin.de/deutsch/d/aufkl/inhalt-Nathan.htm>

18 عن حياة السلطان العادل صلاح الدين، أنظر: عبدالله ناصح علوان: صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين. مؤسسة الرسالة: بيروت 1974.

Hannes Möhring: Saladin. Der Sultan und seine Zeit 1138-1193. C.H. Beck-Wissen, Nr. 2386, München 2005.

19 Karl May: Gesammelte Werke. Bd. 1-95. (ab Band 91 auch Karl May's Gesammelte Werke und Briefe). Karl-May-Verlag: Bamberg 1913-2014; Bd. 1, S. 1-2; Bd. 26, S. 269. (= الأعمال الكاملة)

20 المرجع السابق، جزء 3، ص 450-451.

- 21 المرجع السابق, جزء 5, ص 302.
- 22Johann André: Belmont und Konstanze, oder Die Entführung aus dem Serail. Eine Operette in drey Akten von C. F. Bretzner. Komponirt vom herrn Kapellmeister Andre in Berlin. München, gedrückt bey Franz Joseph Thuille 1781 (one-line).
- 23Daniel Caspar von Lohnstein: Ibrahim Bassa, Trauerspiel. Fellgiebel Verlag: Breßlau 1689 (one- line).
- 24Daniel Caspar von Lohnstein: Ibrahim Sultan. Johann Christopf Kanitzen Verlag: Breßlau 1673 (one- line), S. 7.
- 25 حول صورة العرب في السينما الأمريكية وفي أفلام هوليوود, أنظر:
Jack Shaheen: Arab and Muslim Stereotyping in American Popular Culture. Center for Muslim-Christian Understanding: Georgetown University 1997.
- 26 صحيفة فرنسية كان يمتلكها تاجر يهودي, وقد دخلت الصحيفة في معترك الفتنة والتحريض لإشعال الفتنة ضد المسلمين, وقت تبنت الصحيفة دعوات لطرد المسلمين من أوروبا بحجة تهديد السلم والأمن للشعوب الأوروبية.
- 27 روجيه جارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ترجمة جريدة الزمن بإشراف [محمد سبيلا](#). المغرب 1996.
(*Les Mythes fondateurs de la politique israélienne. La veille taupe* 1995.)
- 28 Le Monde "لوموند" صحيفة فرنسية كان يمتلكها تاجر يهودي, وقد دخلت الصحيفة في معترك الفتنة والتحريض لإشعال الفتنة ضد المسلمين, وقت تبنت الصحيفة دعوات لطرد المسلمين من أوروبا بحجة تهديد السلم والأمن للشعوب الأوروبية.